مقاربة سوسيو لسانية لمشكلة القومية العربية كما يراها صالح خرفي

أ.يحى بوتردين

Résumé:

Cet article a pour but l`étude d`une approche sociolinguistique concernant la question du nationalisme arabe, et ce a travers une communication intitulée La langue Arabe notre identité national, par la quelle le poète et écrivain Algerien Salah KHARFI avait participé au colloque tenu a Tunis sous l`égide de la ligue Arabe en 1985, traitant la dite question.

Dans cet article, nous exposons la méthodologie par laquelle Salah Kharfi a démontré que la véritable identité est celle de la langue, c`est a dire que les gens qui parlent l`Arabe et quelque-soit leurs origines, sont appelé a travailler et défendre la question d`une identité linguistique qui les unit, au lieu de faire appel au diversités ethnique ou autres.

Ceci nous a permit de découvrir un autre aspect de la personnalité de S. Kharfi, qui devint dans cette présente communication sociolinguiste, car il a pu analyse le problème d`un point de vu scientifique purement sociolinguiste, ce qui n`a jamais était une de ses caractéristiques

الملخّص:

ألقى الأستاذ الدكتور صالح خرفي رحمه الله مداخلة في ندوة: قضايا اللغة العربية المعاصرة، التي أقامتها المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، في تونس عام 1985م، عنوانها: اللغة العربية هويتنا القومية، وقد تمكّنا أن نستخرج من هذه المداخلة جملة من الأفكار ذات البعد السوسيو لساني، طرحها صالح خرفي من خلال تحليله للعلاقة بين اللغة العربية ومسألة الهوية في هذا العصر، وخاصة باعتباره كان يشغل منصب المدير الثقافي في المنظمة آنئذ، إذ وجدنا الرجل يصدر عن رؤية علمية دقيقة، ويحمل أفكارا عميقة وعملية من شأنها أن تسهم في حل مشكلات اللغة العربية الراهنة، فهي أفكار جديرة بالاهتمام في إطار اللسانيات الاجتماعية خاصة، والثقافة العربية عامة، مما جعلنا نخصها بالعرض مختصرة في هذا المقال.

لقد تطرّق في هذه المداخلة إلى جملة من القضايا ذات العلاقة بالدرس السوسيولساني، وأصّل لها انطلاقا من مرجعيته العقدية والثقافية، فأصبغ عليها الروح الإسلامية العلمية، حيث تناول من بين ما تناوله: مسألة الصلة بين اللغة العربية والقرآن الكريم وما يترتب عنها من واجبات على المسلمين والعرب خاصة نحو هذه اللغة للنهوض بها داخليا وخارجيا، كما تعرّض لكيفية النهوض باللغة العربية في هذا العصر المتداخل اللغات، وقدّم تصوّره للآليات اللازمة لذلك، حيث ذكر منها على سبيل المثال: ضرورة تفعيل العمل المعجمي العربي من جهة ووضع سياسات لغوية محكمة وهادفة تحمي هذه اللغة وتطوّرها على غرار اللغات العالمية الأخرى.

المقدّمة:

بسم الله والصلاة والسلام على أشرف خلق الله .. وبعد،

لقد بات من الطبيعي أن يعرف الدارسون عن صالح خرفي، كونه أديبا أو ناقدا أو رجلا ديبلوماسيا، ولكن الذي يقرأ بعض أعماله المبثوثة هنا وهناك، قد يلتقي ببعض ما لم يكن في الحسبان، فتنكشف له وجوه أخرى لشخصية الرجل.

ونحن إذ قرأنا مداخلته[1] التي شارك بها في أعمال الندوة العلمية التي أقامتها المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، في تونس عام 1985م، حول قضايا اللغة العربية المعاصرة، أمكن لنا أن نقف على جوانب أخرى جديدة من شخصيته العلمية والثقافية لم نكن نعرفها أو نتصوّرها، لولا هذا القدر السعيد الذي قادنا إلى هذه المداخلة، وقراءتنا لها كانت من أجل معرفة أعمق بالرجل، فألفينا المداخلة عبارة عن بطاقة هوية لشخصية أخرى يحملها صالح خرفي هي شخصية السوسيولساني، الذي يعالج المشكلات اللغوية بنظرة علمية اجتماعية منهجية دقيقة.

و عليه، فإنّنا في هذه الورقة، سنحاول أن نستعرض جملة من القضايا التي تناولها صالح خرفي في مداخلته تلك، نرجو أن تكون اكتشافا لوجه آخر لهذا الرجل، فكان عنوان هذا العمل : مقاربة سوسيولسانية لمشكلة القومية العربية كما يراها صالح خرفي، وقد ارتأينا أن تكون فقراته وفق العناصر الآتية:

1. اللغة ومشكلة الهوية.
2. صالح خرفي واللغة العربية.
3. القومية العربية هوية لسانية.
4. التعريب معركة مقدّسة.
5. مقترحات في سبيل النهوض باللغة العربية:
   - ❖ دور العمل المعجمي
   - ❖ دور الإعلام الجماهيري.
   - ❖ دور السياسات اللغوية.

1- اللغة ومشكلة الهوية.

لا يمكن للعالِم أو المثقّف في عصرنا أن يجهل أو يتجاهل مدى الاتصال الوثيق بين أي لغة من اللغات البشرية والمجتمع الذي تنتمي إليه، أو تستعمل فيه، ولهذا كانت اللسانيات العامة ومنذ بداية عهد الناس بها في عشرينيات القرن الماضي تؤكّد على الخاصية الاجتماعية للغة، تبعا لما للغة من صلة بالقوم الذين يتحدّثون بها أو يستعملونها، يقول ف. دي سوسّير(1913م) (F. DE SAUSSURE): «إنّ اللغة ... نتاج اجتماعي لملكة اللسان..»[2] ، ويقول أيضا: «إنّ اللغة إنّما هي مؤسسة اجتماعية»[3] وهو ما قد أشار إليه بوضوح العالم اللغوي العربي ابن جني (ت 392هـ) في تعريفه الجامع المانع للغة إذ يقول: « أما حدّها فإنّها أصوات يعبّر بها كل قوم عن أغراضهم.»[4] ، أي أنّ اللغة البشرية شكل من أشكال التعبير عن القومية أو المجتمع الذي تنتمي إليه.

وتبعا لهذا، فإنّ الناس في العالم لا يختلفون بالنظر إلى ألوانهم أو أحجامهم أو أشكالهم أو أوطانهم بقدر ما يكون اختلافهم مرتبطا بألسنتهم ولغاتهم أو لهجاتهم، ولقد أنتجت الدراسات اللغوية في القرنين التاسع عشر والعشرين اختصاصا دراسيا مستقلا يدعى الجغرافية اللسانية[5]، بحيث يعنى الباحثون فيه بتتبع التوسّعات اللغوية عبر خريطة العالم، ثم ينشئون الخرائط ذات التوزيع اللغوي للعالم. فكما أنّ للسياسة خرائط وللمناخ خرائط، وللأديان والأعراق والألوان خرائط، فإنّ للغات أيضا خرائط، وقد يتطوّر الأمر فتدرس لغة أو لغات ما من حيث تطوّرها وانتشارها في العالم، وينتج عن تلك الدراسة أطلس لغوي يفيد الباحثين في دراسة تلك اللغة أو اللغات دراسة تاريخية وجغرافية...إلخ.

لقد تعلّق الناس في العالم بلغاتهم (ألسنتهم)[6] تعلّقا شديدا، ولأسباب وعوامل مختلفة، منها ما هو ديني، ومنها ما هو عرقي، ومنها ما هو سياسي...إلخ فكانت اللغة مكوّنا أساسيا من مكوّنات الشخصية الاجتماعية للشعوب والأمم، وكانت عاملا مؤثّرا تأثيرا مباشرا في تكوين هويّة الفرد، حتى قيل إنّ هذا عربي، وذا أمازيغي وذاك فرنسي، وذلك إنجليزي ... وهكذا، سواء بالنظر إلى نشأته وانتمائه إلى هذه المجتمعات (الأمم، الدول)، أو بالنظر إلى اللغة التي يعرفها ويتقنها ويتعامل بها في حياته.

وفي الثقافة العربية القديمة، كانت الهوية العربية وقفا على من يكون منشأه الجزيرة العربية فقط، وكان من أم وأب عربيين، أي أن الاعتبار للأساس العرقي والبيئي، ولكن، بمجرّد أن جاء الإسلام، ونزل معه القرآن بلسان عربي مبين، تحوّلت هذه القاعدة، فصارت الهوية العربية حقّا لكل من تحدّث العربية من المسلمين، أي باعتبار الاستعمال اللغوي والانتماء الديني لا غير. وذلك لأن نزول القرآن باللسان العربي، فرض على كل المسلمين تعلّم هذه اللغة ليرتبطوا بالقرآن تلاوة وتدبّرا وعملا. فكان إذن من المسلمين غير العرب من تخلّى نهائيا عن لغته الأم (الأولى) لحساب العربية لغة القرآن الكريم، واستمسك بها وصار عربيا بلسانه. على أنّنا نلاحظ في أيامنا تراجعا كبيرا لدى الأمم المتعرّبة من العجم والبربر المسلمين عن هويتها العربية، وبخاصة عندما برزت حركة إحياء اللغات القومية والإقليمية، كسياسة عالمية محكمة التدبير سواء لضرب اللغة العربية (لغة الإسلام)، والتي ظلّت تنافس الإنجليزية وترهب العالم بقدرتها الفائقة على الانتشار السريع حتى من دون دعم حكومي أو أممي، أم لمجرّد خدمة لغاتها القومية كنوع من الصراع أو الحرب بالمفاهيم والمعطيات العالمية الجديدة، فكانت اللغة ومشكلة الهوية إذن موضوعا يشغل بال المثقفين من الناس على نطاق واسع من العالم والعالم العربي الإسلامي بخاصة.

صالح خرفي واللغة العربية

ما أن يذكر صالح خرفي، إلاّ وتذكر معه اللغة العربية، فهي من لوازم التعريف به. لقد تشرّب الرجل لغته العربية كما الماء والهواء، حتى غدت عنده صفة تلاحقه في أطوار حياته كلّها.

لقد نشأ صالح خرفي[7] في أحضان اللغة العربية منذ أن كان تلميذا في مدرسة الحياة ومعهدها بالقرارة جنوب الجزائر، حيث كان أول عهد له بالعربية فيهما، ثم ترعرع الشاب بعد ذلك بين جنبات جامع الزيتونة بتونس، يعب من معين شيوخها الفكر والأدب بلغة عربية راقية، وبعدها كان الدور على أرض الكنانة مصر التي صقل فيها مواهبه، سواء داخل مدرجات جامعة القاهرة أو بين رفوف مكتباتها، إلى أن تخرّج فيها بدرجة الدكتوراه في الآداب سنة 1971م، ثم عاد إلى الجزائر ليمتحن صلته بهذه اللغة في الميدان، مدرّسا تارة

ومحرّرا لمجلّة الثقافة تارة أخرى، إلى أن انتهى به المطاف مديرا للثقافة بالمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، يدير ندواتها وملتقياتها ويضع مع المختصين برامجها وسياساتها التي كانت لا تخرج في الغالب عن نطاق خدمة اللغة العربية وثقافتها.

إنّ اللغة العربية لتسري في عروق صالح خرفي سريان الدم في شرايينه، ولم تكن لتؤثّر لغته الأم (الأمازيغية الميزابية) في هذا التوجّه الذي غرسه فيه القرآن الكريم وأسّسته مدرس الحياة وأصّلته تجاربه في الحياة، لقد كانت اللغة العربية لغته الأولى التي يكتب بها ويؤلّف ويتحدّث ويلقي أشعاره... فقد كان شاعرا وناقدا ومفكّرا، فضلا عما تكون قد جرّته أليه الديبلوماسية من صنوف الثقافة الواسعة ذات البعد العالمي.

فمثل هذا الزخم الفكري الأصيل والمتفتّح، الذي كان يتمتّع به صالح خرفي، يجعله جديرا بأن يكون صاحب مواقف تجاه قضايا عصره، وبخاصة ما تعلّق منها باختصاصه العلمي أو ميوله الثقافية، وهو ما تطلعنا به هذه المداخلة التي بين أيدينا.

إنّ القارئ لهذه المداخلة يكتشف صالح خرفي من جديد، وذلك من خلال جملة من آرائه ورؤاه حول قضية حساسة جدا، هي مشكلة اللغة والهوية، حيث يظهر وهو يقف من العربية موقف العالم بأسرارها والخبير بخصائصها ومميّزاتها، يذود عنها ما وسعه الجهد، ويوضّح بالأدلّة النصيّة والعقلية والواقعية ما يفيد عظمتها وعلو شأنها. ولا يملك القارئ في نهاية المطاف إلاّ أن يسلّم بأنّه قد اكتشف شخصية أخرى في عالم صالح خرفي، ألا وهي شخصية اللغوي الاجتماعي (السوسيولساني).

فما الذي تطرّق إليه في هذه المداخلة يا ترى؟ ذلك ما سنحاول تبيّنه من خلال الفقرات الآتية:

القومية العربية هوّية لسانية

لقد أظهرت هذه المداخلة صالح خرفي، صاحب نظر بعيد، وطرح عميق، وتحليل دقيق، إذ لم يكن كمثل الذين يتغنّون بالعربية من حيث هي هوية جوفاء، أو يعتمدون على شعارات شكلية مفعمة برائحة الشعوبية العرقية الممقوتة، والتي كانت من الأسباب المباشرة

في ظهور حركات إحياء اللغات أو اللهجات الإقليمية في العالم الإسلامي المعاصر، وبخاصة في شمال إفريقية والعراق[8].

إنّ صالح خرفي بفكره النيّر ونظره الثاقب، ذهب بعيدا في معالجة المسألة، وأسّس لاستراتيجية ثقافية تعنى بالعقل قبل أن تستهويها العاطفة. لقد نظر إلى العربية باعتبارها لغة القرآن –رسالة الإسلام– وبالتالي فهي لغة كل من ينتمي إلى هذا الكتاب ويحتفل بهذه الرسالة. لقد ركّز في تحليله لهذه المسألة على هاتين الخاصيّتين المتلازمتين لتشمل كلّ ما يتعلّق بهما، لأنّ المسلم الذي يتعلّق بالقرآن الكريم، يصبح من واجبه تعلّم العربية، فهي السبيل إلى فهم الكتاب وتلاوته والتعبّد به، ثم أنّ هذا المسلم ذاته، عندما ينوي النهوض برسالة الإسلام في سبيل تبليغها للناس–وهو مأمور بذلك– يكون في حاجة إلى العربية لأنّها مفتاح علومها ونصوصها، وبالتالي، فالمسلمون جميعا وإن اختلفوا في أعراقهم وألوانهم, وألسنتهم (بمعنى اللغة الأم) هم أبناء العربية وأصحابها وهم الناطقون بها بهذا الاعتبار، لأنّ لغة القرآن قد استوعبت جميع لغات الشعوب الناطقة بغير العربية والتي اختارت الإسلام دينا وعقيدة ونظام حياة، فكان من الطبيعي أن تصبح العربية اللغة المفضّلة لدى هذه الشعوب ما دامت لغة كتابهم المقدّس (القرآن الكريم)، وتصبح بالتالي لغة عالمية واسعة الانتشار، وفي هذا يقول صالح خرفي: « استطاعت اللغة العربية أن توسّع رقعتها الجغرافية، وتعمّق رصيدها البشري وتستميل الأتباع والأصقاع، فأثّرت بالحضارات التي التقت بها واستوعبتها... وبفضل الإسلام وفي ظلّه، دانت اللغات التي التقت به للغة العربية التي تحمل رسالته، فكان المد وكان الجزر، جاءت اللغة الفاتحة المبشّرة بالدين الحديث، فاستمالت لغات شائعة دان أهلها بالإسلام فارتضوا لغة كتابه المقدّس بديلا من لغاتهم، وأبدعوا في اللغة الجديدة بقدر إيمانهم في الدين الوافد، فجعلوا منها اللغة العالمية انعكاسا للرسالة التي جاءت رحمة للعالمين »[9]، إنّه رحمه الله، يريد أن يؤكّد وبوضوح على أنّ سبب انتشار العربية إنّما هو القرآن الكريم، وهو الدين الإسلامي الذي رفع من شأنها ووحّدها وجعلها تكتسح العالم باعتبارها لغة تواصل وإبداع لا لغة دين فقط، وهذا الأمر هو الذي

جعلها تعبّر عن هوّية متميّزة هي الهوّية اللسانية الدينية، التي هي أقوى من أي نوع آخر من أنواع الهوّيات التي عرفها الإنسان.

إنّ ثقافة صالح خرف الواسعة، وعقيدته الراسخة، جعلاه يُؤكّد على هذه النظرة الشمولية إلى موضوع القومية العربية في بعدها اللساني الديني، ويجعل العربية أولى اعتبارا حتى من لغته الأم التي هي الأمازيغية الميزابية، وهذا عنصر قوّة في شخصيّته، أصبح عملة نادرة في عصرنا.

وإن يكن صالح خرفي يدين بالولاء للغة العربية، لكونها من الدين، أو كما يقول:«حاملة الرسالة السماوية ومبلّغة الوحي الإلهي... ناشرة الدين الحنيف وسفيرته إلى العالمين »[10]، فإنّه من جهة أخرى ينتقد وضعا لا يرتضيه في عصرنا، قد بلغته اللغة العربية من جرّاء ما أصابها من الهوان والعقوق من قبل الذين آثروا لغات أخرى عليها، سواء الخارجية منها أو الداخلية المحلية.

ويرجع صالح خرفي هذا الأمر إلى ضعف الوازع الديني عند الناس، وبعدهم عن الفهم الصحيح للدين الإسلامي، يقول:«وعندما يكون العطاء الخارجي على حساب الأصالة الذاتية، تفقد اللغة وظيفتها في بناء الذات لتتحوّل إلى معول في هدمها، ولن يكون ذلك إلا بانقطاع الصلة بين اللغة منطوقة على طرف اللسان، وبين اللغة مغروسة في العمق العقائدي، والبعد الحضاري، وهو انفصام رفضته اللغة العربية في أوج سيادتها، فاستعصمت بذلك على المتربصين بها والكائدين لها»[11]، فمن الواضح هنا أنّه يشير إلى ضرورة أن تبقى اللغة العربية عملة ذات وجهين متّصلين ببعضهما تمام الاتصال، هما الشكل اللفظي الذي يلهج به طرف اللسان، والمضمون العقدي الذي يستقرّ في القلب، فمتى كان هذان الوجهان مرتبطين ببعضهما، كانت اللغة العربية قوية وسيّدة، ومتى أصيبت بالانفصام بينهما، ضعفت وفقدت أهم خصائصها الوظيفية التي هي التوحيد، توحيد المسلمين على لسان واحد، موحّد لله ومخلص له في الإيمان بالقلب والعبادة بالجوارح.

التعريب معركة مقدّسة

ومن بين ما أثاره صالح خرفي رحمه الله في هذه المداخلة أيضا، قضية التعريب التي ما أن تذكر العربية إلاّ وتأتي إلى الأذهان، وبخاصة في هذا العصر، وبعد أن انتهى الاستعمار العسكري والاستيطاني، واستقلّت معظم البلاد العربية والإسلامية إداريا عن مستعمِراتها، إذ يركّز انتقاده هذه المرة على من أسماهم ذيول الاحتلال، الذين وقفوا –كما يقول– حجر عثرة أمام تقدّم وازدهار العربية في أوطانهم، يعرقلون جهود التعريب ويعطّلون مسيرته.

فبعد أن كان عهد المقاومة قد أفرز موقفا موحّدا للشعب يشد من أزر العربية، فإنّ عهد الاستقلال جعل الناس فريقين، فريق مع العربية، وآخر ضدها، وكأنّه قُدّر لهذه اللغة أن تعاني الأمرّين: من المستعمر الذي أراد محوها وفرض لغته مكانها، ومن أبنائها الذين خذلوها وفضّلوا لغة المستعمر (أو غيرها) عليها، حتى صيّروها (العربية) رمزا للتخلّف في عهد الاستقلال، بعد أن كانت عنوانا للقوّة والمقاومة أيام الاستعمار، يقول صالح خرفي: « وكان مكتوبا على العربية أن تعاني من أبنائها انحطاطا وتبعيّة، فهي رمز المقاومة في أيام المحنة وعنوان التخلّف في وقت الرخاء، ضحية اللغات الدخيلة في عهد المدافعة، وربيبتها في عهد البناء، فدعاة التغريب في عهد السيادة هم ورثة الغاصب في عهد الاحتلال، يبررون بالمسخ ما دحضه الآباء بالروح، فكأنّ الدماء سالت لتتوطّن لغة الدخيل وثقافته، وأية ازدواجية أنكى من معركة تخوضها ضد العدو، لتنقلب إلى نيابة عنه، وما من شكّ في أنّ بعض أوجه الاحتلال قد ولّت، ولكن بعض أوجه السيادة لم تصل بعد، وذلك هو الجهاد الأكبر »[12].

لقد كان صالح خرفي يصدر في موقفه هذا عن أصالة وثبات، وإيمان واقتناع، إذ يجعل بقاء لغة المستعمر على حساب العربية وجها من وجوه الاستعمار وملمحا من ملامحه، وبلغة هي أقرب إلى الصراحة منها إلى الكناية، يدعو إلى ضرورة المقاومة لهذه الظاهرة، التي يصف العمل من أجلها بالجهاد الأكبر، وذلك دليل على أهميّتها وخطورتها ما دامت السيادة –بمعنى الاستقلال الكامل– لم تصل بعد مداها المطلوب.

والحق إنّ صالح خرفي لم يكن ليَسِم العمل من أجل العربية بالجهاد، أو أن يدعو إليه، لولا إيمانه بقداسة القضية واتصالها بالدين، وهو ما افتقدته فيما يبدو كثير من دعوات التعريب وحركاته، مما جعل مآلها الفشل والتعطّل، أمّا هو فيعتبر مجرّد اتصال التعريب بالحرف العربي ذاته الذي هو مقوّم أساسي لشخصية المسلم، يجعل العمل في التعريب مشاركة في معركة مقدّسة، وفي هذا يقول: « إنّ معركة التعريب التي لا يعي معاناتها إلاّ الخائض غمارها، تعتبر أقدس وجه من الوفاء للغة القومية، في غمرة التنكّر لها والتفريط فيها، وتزداد هذه المعركة قداسة عندما يتّصل التعريب بوجود الحرف العربي ذاته واستعادة المقوّم الأساسي للشخصية، فضلا عن التماس سبيل التقدّم لهذه الشخصية بالتعريب الثقافي والعلمي »[13].

وعلى هذا المنوال يواصل صالح خرفي تحليله لهذه القضية(قضية اللغة العربية والهوية القومية)، حيث يركّز هذه المرّة على عنصر علاقة الإسلام باللغة العربية، وينتهي إلى القول إنّ العربية ينبغي أن تصبح لغة المسلمين جميعا، لأنّهم مرتبطون بالقرآن الكريم عقديا وتعبّديا، مما يستوجب عليهم اكتسابها وإتقانها، وهذا بدوره يستلزم من الناطقين بالعربية والماهرين بها، أن يقوموا بحملة تبشيرية للعربية من أجل نشرها على أوسع نطاق ممكن، وهذا لا يتأتى –برأيه– إلاّ بامتلاك الوطن العربي للسيادة اللغوية الكاملة، كي يكون : « هو المساعد الأوّل على دعم لغة القرآن في الشعوب الإسلامية الأخرى »[14]، ولكنّه يشترط في ذلك ألاّ يكون أهلها متخاذلين بل ينبغي أن يكونوا أصحاب عزم وإرادة للمضي قدما نحو تحقيق التبشير المنشود بلغة القرآن بين الشعوب الإسلامية، لأنّها باتت تتطلّع إلى من يشد عضدها في تعلّم لغة القرآن والحفاظ عليها؛ إنّ هذا الأمر –كما يؤكّد صالح خرفي– ليضع على كاهل العرب مسؤولية مزدوجة، تتمثّل في نشر العربية والحفاظ عليها داخليا وخارجيا.

أمّا داخليا ففي عقر الديار بالوطن العربي، وذلك بمكافحة التغريب وغيره مما يقف معطّلا انتشار العربية، وأمّا خارجيا، ففي بلاد الشعوب الإسلامية، وحيثما وجد المسلمون الذين تربطنا بهم رابطة الدين، وهو ما يفضي بالعروبة والإسلام إلى الانصهار التام في

بعضهما من أجل خير الأمم كلّها، وعن هذا يقول: « فإذا تعزّز الشعور الديني بالأداة المعبّرة عنه، تعانقت العروبة والإسلام في أروع مظاهرهما وأكمل صورهما وأوسع آفاقهما لما فيه خير البشرية جمعاء »[15].

وفي معرض حديثه عن مكافحة التغريب الذي أسّس له الاستعمار، حين خسر المعركتين العسكرية والسياسية، أشار بوضوح إلى أنّ أفضل وسيلة لمكافحته هو تفعيل حركة التعريب بمختلف مستوياتها، إذ يقول: « فحركة التعريب بمختلف مستوياته، بدءًا بالتعريب التربوي ومرورا بالتعريب الحضاري، ووصولا إلى التعريب العلمي والتقني... هي الوجه الأمثل والنصر الأسمى في مجابهة الاستعمار الجديد»[16] .

إنّ صالح خرفي، يأبى أن يغفل جزئية ما –وإن تكن ضئيلة– إذا تعلّقت بدور اللغة العربية في تكوين الهوّية القومية بمفهومها الواسع، الديني واللساني، حيث إنّه في جزئية أخرى من مداخلته، تتعلّق بالمواجهة والتحدّي، الذين يفرضهما التقدّم العلمي العالمي المعاصر على اللغة العربية، يتعرّض مرّة أخرى للتعريب في المستوى العلمي والتقني، حيث يبيّن للقارئ في البداية أنّ هذه المواجهة أو المدافعة الحضارية، ليست جديدة على العربية، بل قد تعرّضت عبر تاريخها لعدّة مواجهات حاسمة، وكان بمقدورها أن تنتصر في الأخير، مخلّدة ذكرها في العالمين، كما أنّ هذه المواجهة ليست قدرا محتوما على العربية وحدها، وإنّما هي تجربة قد خضعت لها بالأمس أمم أخرى هي اليوم متقدّمة، إذ استطاعت أن تستلهم عناصر قوّتها من الحضارة العربية الإسلامية، ودون أن تفرّط في هوّيتها، ومن هنا فهو (أي صالح خرفي) يشترط على أي محاولة للحداثة والعصرنة ومواكبة التطوّر العلمي والتقني، أن يمرّ من طريق الأصالة حتى لا يكون الأمر محض استلاب وتقليد للقشور، يقول في هذا الشأن:«مكتوب على الأمّة العربية اليوم وهي تتطلّع جاهدة إلى يقظتها المعاصرة، أن تعيد سيرتها الأولى وسيرة الآخذين منها في التلقّي من غير تفريط، والاستلهام من غير انفصام، فالتطوّر لا يقاس بسطحيته الزمنية، ولكن بعمقه الحضاري، والتقدّم لبّ في الأصالة، وليس قشرة استلاب، والتخلّف لا يستدرك بتخطّي الذات، والقفز فوقها، ولكن بتأصيلها والذوذ عنها»[17].

هذا ومما اقترحه الأستاذ خرفي في إطار النهوض باللغة العربية لتواكب العصر، جملة من الآليات العملية التي نجد لها أساسا منهجيا في الدرس اللساني التطبيقي[18]، نختصرها فيما يلي:

1.دور العمل المعجميويشرح لنا في البداية كيف أنّ المعجم العربي في مسيرته التاريخية استطاع أن يستوعب رصيد اللغة ويكوّن ذخيرة هائلة تشهد على نموّها وتطوّرها، وضرب المثال لذلك بمعجم العين للخليل بن احمد الفراهيدي (ت175هـ) الذي قعّد للعربية وأسّس لتطويرها، ومعجم لسان العرب لابن منظور (ت711هـ) الذي حفظ للعربية ذاتيتها، في عهد الانحطاط والضعف، ولم يفوّت الفرصة دون أن ينتقد أبناء العربية في هذا العصر ويعاتبهم، على عجزهم عن تقديم ما قدّمه أسلافهم لهذه اللغة، وبخاصة في إطار ما تمنحه لهم المعجمية المعاصرة[19] من تقنيات ومعارف نظرية وعملية في صناعة المعاجم، من أجل التغلّب على الحاجة الماسة إلى المعاجم العامة والمتخصصة في ظل الانفجار المعرفي الذي يشهده هذا العصر، يقول بهذا الشأن: « ومن المؤسف حقًّا أنّ أبناء العروبة اليوم يبدون أقل إدراكا لعبقرية آبائهم في التأليف المعجمي، وأقل وفاء لإنصاف هذه العبقرية واستيعابها، في الوقت الذي هم مطالبون فيه، بمواصلة السيرة الأولى لآبائهم في هذا المضمار، وإضافة الجديد والمستحدث عليها وشدّ أزر لغتهم القومية بالمعجمية المعاصرة في مواجهة اللغات الأجنبية المزاحمة »[20].

2.دور الإعلام الجماهيري: ومن بين الآليات التي اقترحها أيضا للنهوض بالعربية في هذا العصر، دور الإعلام الجماهيري ووسائل الاتصال، لما يشهده هذا القطاع من تطوّر، ومن حيث كون اللغة هي عماد وسائل الاتصال والإعلام، فبالإمكان أن توظّف هذه الوسائل بهدف تطوير اللغة وازدهارها وحلّ مشكلاتها، ولكنّ الواقع غير ذلك، مما دفع بصالح خرفي إلى أن يعلن تدمّره من واقع اللغة العربية في وسائل الإعلام العربية، وهو مدير للثقافة العربية على مستوى الجامعة العربية حينئذ، إذ يقول: « إنّ الإعلام بما يشهده من تطوّر مذهل في وسائله، وإنّ الاتصال بما يستقطب من تقنيات حديثة في قنواته، كان من الممكن أن يكونا من أنجع وسائل الازدهار اللغوي وتقريب الشقة بين المواطن ولغته القومية، ولكن لم يزل

حظ هذه اللغة في وسائل الإعلام المحسوبة عليها، موزّعا بين عاميّات دارجة، أو لغات أجنبية، حتى أنّ المواد الأكثر حيوية وتجاوبا مع الجماهير العريضة غالبا ما تكون بعيدة عن استثمار اللغة العربية في تبليغها، في الوقت الذي ينحصر فيه دور اللغة العربية إعلاميا في الموضوعات ذات الطابع الجاد والخطاب المباشر »[21].

وأمّا عن دور الإعلام وأهميته في النهوض بهذه اللغة إلى جانب المؤسسات الأخرى، وبخاصة إذا ما توفّر الوازع القومي والعاطفة الصادقة، فإنّه يقول: « إنّ أجهزة الإعلام قادرة في المجال اللغوي، أن تكون صورة من أروع صور التكامل مع جهود المدرسة والجامعة في النهوض باللغة العربية، كما هي مؤهّلة أن تكون صورة من صور التخاذل مع هذه الجهود عندما يفتر الوازع القومي بالنسبة للغة العربية»[22].

3.دور السياسات اللغوية:هذا ولم ينه صالح خرفي مداخلته تلك، إلاّ بعد أن عرّج على آلية أخرى، تعد من أهم الآليات المعتمدة في النهوض باللغات القومية في العالم، ألا وهي السياسات اللغوية، أو ما يطلق عليه أيضا التخطيط اللغوي[23]إذ حاول جهده أن يبيّن لنا أنّ ازدهار العربية وانتشارها على غرار اللغات الحية العالمية الأخرى، لا يمكن أن يتمّ إلاّ بسياسة هادفة تدعمها وتشد أزرها وتخطط لها بل وتنفق عليها، وذلك مثلما هو عليه الحال بالنسبة للغات الوطنية والقومية في البلدان المتقدّمة، فقضية تدبير أمر اللغة القومية عندهم من مسؤولية الدولة، وهي التي تحفظها وتحميها من أي مزاحمة أو صراع، وحمايتها للغاتها حماية لكيانها، والحق أنّ هذا الطرح اللساني الاجتماعي من قبل الأستاذ صالح خرفي، ينم عن عمق في التفكير وبعد في النظر، كان يتمتّع بهما، وفي هذا يقول: « ومهما يكن من أمر فإنّ العربية لا يمكن لها استعادة مكانتها بين لغات العالم الحية الواسعة الانتشار، إلاّ إذا طبّقت بشأنها سياسة لغوية محكمة التصوّر، واضحة الأهداف، بعيدة عن الغايات الدعائية الآنية، فإنّ قضايا اللغة في البلدان المتقدّمة من اختصاص الدولة أيضا، تنفق على التقدّم بها بسخاء وتخصّها بالقرارات والقوانين الحامية لها، الدافعة عنها مزاحمة اللغات الأخرى»[24].

الخلاصة

لا يزال القارئ لكتابات صالح خرفي يستكشف عوالمه الخفية، وهذه الفقرات التي توقّفنا عندها قد بيّنت لنا وجها آخر لهذا الرجل العالم، الذي يحسبه الكثيرون شاعرا ويظنه آخرون رجل إدارة، وغيرهم يقول عنه إنّه ناقد، ولكننا وجداه هذه المرّة مختلفا تماما، فهو رجل اللغة ولا نعني اللغة بمعناه المعياري الأكاديمي(النحو والصرف والبلاغة)، وإنّما شؤونها التطبيقية والاجتماعية، ثم أن تفكيره ليس مجرد تفكير حر انطباعي، وإنّما هو تفكير عميق مبني على أسس علمية متعارف عليها، وإن لم يفصح هو نفسه عن ذلك.

هذا وإن كنّا نسجّل على الأستاذ خرفي رحمة الله عليه –على ما قدّمه لنا من أفكار وآراء نيّرة– إغفاله لآلية من الآليات الأساسية في النهوض باللغة العربية، ألا وهي آلية التعليم، أي تعليم اللغة العربية، وبخاصة عند التركيز على عنصر المحتوى التعليمي، لما له من علاقة وطيدة بالموضوع، لأنّ تدريس العربية كما هو واقع حاليا في معظم البلاد العربية والجزائر منها خاصة، لا يقوم –فيما نحسب–على اختيار مدروس للمحتوى (أي المواد الدراسية)، مما جعله يشكو التعطّل والفشل، وما ضعف المستوى الذي هو معضلة المعضلات في تعليم العربية إلاّ نتيجة لذلك، ومن هنا، يبدو لنا من المفيد أن نضيف إلى ما ذكره الأستاذ صالح خرفي هذه الآلية، وهي ضرورة أن يقوم تعليم العربية على هدف عام وشامل هو المحافظة على صلة المتعلّم بالقرآن، مادام أكثر الناطقين بها والراغبين في تعلّمها مسلمين، وهو الهدف الذي يفرض علينا اختيار محتوى رئيسي هو النص القرآني، تكون عليه العمدة في التطبيق، ثم تليه بقية النصوص ذات الصلة بالثقافة العربية عامة، من أدب وتاريخ فلسفة وإعلام وغيرها. ولغة النص القرآني في الحقيقة هو المحتوى الوحيد الذي يلتقي عنده المتعلّمون ويتفقون عليه، لأهميته وقداسته، وهو الذي يمكنه أن يشد المتعلّم إلى الدرس ويجعله يهتم به أكثر مما لو كان محتوى آخر. وبهذا يرتفع شأن درس العربية وبالتالي يحصل التطور المنشود لها بواسطة هذه الآلية التي هي التعليم.

ومهما يكن من أمر، فإنّ حسبنا هذا الاكتشاف لشخصية صالح خرفي السوسيولساني، الذي إن لم يكن بالنسبة للبعض اكتشافا، فهو بالنسبة لنا كذلك، ولا مفر من حقيقة علمية وواقعية تفرض نفسها هنا، وهي أننا لا يمكن أن نقول الكلمة الفصل في التعريف بأي عالم أو أديب، مادمنا لم نستكمل القراءة الشاملة لآثاره.

الإحالات

(**1**) المداخلة عنوانها: **اللغة العربية هويتنا القومية**، منشورة ضمن **أعمال ندوة خاصة بشؤون اللغة العربية** ، ينظر: المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، **قضايا اللغة العربية المعاصرة**، مطبعة المنظمة، تونس، 1990م، ص17-29.

(**2**) فرديناند دي سوسير؛ (أو فردينان ده سوسُّر) **محاضرات في الألسنية العامة**، ترجمة يوسف غازي ومجيد النصر، المؤسسة الجزائرية للطباعة، الجزائر، 1986م، ص21.

(**3**) فرديناند دي سوسير؛ المرجع نفسه، ص27.

(**4**) ابن جني ، أبو الفتح عثمان (302-392)؛ **الخصائص**، تحقيق محمد علي النجّار، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، (دت)، ج1 ، ص 33.

(**5**) ينظر بالنسبة لتعريف هذا الفرع من علوم اللسان: ماريو باي، **أسس علم اللغة**، ترجمة أحمد مختار عمر، علم الكتب، القاهرة، مصر، ط3، 1987م، ص36 وما بعدها.

(**6**) يستعمل اللفظان [لغة] و[لسان] في الثقافة العربية بصفة تبادلية باعتبارهما يحملان معنى واحدا، وإن كانا مختلفين في الاصطلاح اللساني البحثي المتخصص، باعتبار أنّ [اللغة] تحمل بعدا تجريدا عاما لأنها خاصية بشرية، وهي تمثّل مظهرا لا وجود له في الواقع، وإنّما يمثّله بصفة جزئية (وسلبية)[اللسان] الذي يحمل بعدا اجتماعيا له شكل حقيقي تجسّده في الواقع ألسنة مختلف الأقوام.

(**7**) ينظر بالنسبة للتعريف بـ: صالح خرفي:محمد ناصر؛ **الشعر الجزائري الحديث** (اتجاهاته وخصائصه الفنية)، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، ط1، 1985م، ص674. وتوفي رحمه الله بتاريخ 23-11-1998م. ينظر: **مجلة الحياة**، جمعية التراث، القرارة (الجزائر)، ع2، جانفي 1999م، الملحق، ص237.

(**8**) يظهر لنا أن من الأسباب المباشرة لقيام حركة الجزأرة (الدعوة إلى اللسان الأمازيغي في الجزائر) وكذلك الأمر في بلاد المغرب الكبير، ووقوفها الند للند في وجه العربية، تطرّف السياسات اللغوية (المتمثّلة في التعريب) لبعض الحكومات باعتبارها كانت تستعمل خطابا تعريبيا (أجوف) خال من الروح الدينية، مما جعل بعض الأمازيغ (البربر) –الذين ضعف لديهم الوازع الديني– يشعرون بانعدام أي فائدة أو مصلحة لهم في تلكم السياسات، وبخاصة وأنّ ما يجمعهم بالعرب والعربية هو الولاء للإسلام وليس غيره، وعليه كان الانحراف. وهو عينه ما وقع في العراق حيث الحزب البعثي ذي التوجه العروبي العرقي الصريح.

(**9**) صالح خرفي؛ **اللغة العربية هوّيتنا القومية**، ص18.

(**10**) صالح خرفي؛ **المرجع نفسه**، ص17.

(**11**) صالح خرفي؛ **المرجع نفسه**، ص18.

(**12**) صالح خرفي؛ **المرجع نفسه**، ص19-20.

(**13**) صالح خرفي؛ **المرجع نفسه**، ص20.

(**14**) صالح خرفي؛ **المرجع نفسه**، ص22.

(**15**) صالح خرفي؛ **المرجع نفسه، والصفحة**.

(**16**) صالح خرفي؛ **المرجع نفسه**، ص24 .

(**17**) صالح خرفي؛ **المرجع نفسه**، ص25 .

(**18**) تعنى اللسانيات التطبيقية بحل المشكلات الحياتية ذات الصلة باللغة، وتقدّم آليات لمعالجتها عمليا مثل التي نجدها في ميدان تعليم اللغات وتعلّمها أو ميدان صناعة المعاجم، أو ميدان الترجمة أو ميدان الإعلام والمعلوماتية ...إلخ ينظر لمزيد من التوضيح: س.بيت كوردر، **مدخل إلى اللغويات التطبيقية**، ترجمة جمال صبري، مجلّة **اللسـان العربـي**، مكتب تنسيق التعريب بالمغرب، الرباط، المغرب، المجلّد14، الجزء1، 1976م، ص64 وما بعدها. أحمد حسّاني، **دراسات في اللسانيات التطبيقية** (حقل تعليمية اللغات)، ديوان المطبوعات الجامعية، (دط)، 2000م، ص41 وما بعدها.

(**19**) تعنى المعجمية المعاصرة بشؤون المعجم ومشكلات الانفجار اللغوي المصطلحي، في سبيل إيجاد حلول علمية لها، وعن مستقبل المعجم في إطار اللغة العربية ينظر: احمد مختار عمر؛ **صناعة المعجم الحديث**، عالم الكتب، القاهرة، ط1، 1998م، ص165 وما بعدها.

(**20**) صالح خرفي؛ **المرجع نفسه**، ص26 .

(**21**) صالح خرفي؛ **المرجع نفسه**، ص27 .

(**22**) صالح خرفي؛ **المرجع نفسه والصفحة**.

(**23**) ينظر في هذا الموضوع خاصة: . ميشال زكرياء، **قضايا ألسنية تطبيقية**، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، ط1، 1993م، ص9 وما بعدها.

(**24**) صالح خرفي؛ **المرجع السابق**، ص29.